المقصود بالعنوسة

قال أهل اللغة: "عنست البنت البكر تعنس بالضم، وعنوسًا وعِناسًا، أي: طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج فهي عانس، والرجل أسن ولم يتزوج فهو أيضًا عانس، وأكثر ما يستعمل في النساء، ويقال أيضًا: عنست البنت البكر، أي: حبسوها عن التزوج حتى فاتت سن الزواج".

ولفظ (عانس) لغويًا يشمل الجنسين، وليس النساء فقط! والقاموس المحيط يعرف لفظ عانس بأنها: البنت البالغة التي لم تتزوج، وهو اللفظ نفسه الذي ينطبق على الرجل الذي لم يتزوج، فالقاموس المحيط يوحّد إذن في هذا اللفظ بين المرأة والرجل على حدٍّ سواء.. والشاب الذي لم يتزوج فيطلق عليه "أعزب" أو "عازب".

والعانس اليوم تغيرت ملامحها.. وتعددت ظروفها.. لكن الأزمة القديمة تبقى واحدة من المحيط إلى الخليج! الجديد هذه المرة هو أن شبح العنوسة يصيب أيضًا الرجل.

وهناك اتجاه آخر لتعريف العنوسة يختلف حسب المجتمع المحيط ويتعلق الأمر بالسن.. فالفتاة في القرى والريف المصري إذا تجاوزت سن العشرين تعد في نظر أهلها عانسًا أو على عتبة العنوسة، وبالتالي وجب تصريفها بأي شكل، ولو على حساب أمور تعد أساسية في الحياة الزوجية.

وأكد الخبراء أن هذه الظاهرة خطيرة بدأ يعاني منها المجتمع المصري لا سيما في السنوات الأخيرة التي استهدفت الفتات الوسطى محملين الفتيات والأسرة المسئولية عن تفاقم تلك الظاهرة بسبب تغير مفاهيمهن عن

الزواج مما جعل الشاب يقف عاجزًا عن توفير الحد الأدنى لمتطلبات الفتاة وأسرته.

أما وزارة الشئون الاجتماعية المصرية فقد أعلنت بدورها عن أن (٢٥٥) ألف طالب وطالبة ـ يمثلون نسبة ١٧ فى المائة من طلبة الجامعات ـ قد اختاروا الزواج العرفى. بينما أعلنت وزارة العدل فى أحدث إحصائية لها عن زواج (٢٠٠) ألف فتاة مصرية من أثرياء أجانب كبار السن، وأن هناك اتجاهًا يسود بين الشباب المصريين للارتباط بزوجات من عرب إسرائيل ودول الاتحاد السوفيتى السابق وأوروبا الشرقية حيث يرتبط الشاب بفتاة متعلمة وجميلة؛ لأن هذا الارتباط لن يكلفه سوى منزل مؤثث.

ولا يوجد سن محدد نستطيع أن نصف فيه الفتاة بأنها أصبحت عانسًا، فهذا يختلف من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى، ولكن هناك شبه اتفاق على أن بلوغ الفتاة سن ٣٥ سنة يعني دخولها المؤكد فى مرحلة العنوسة، والبعض يسميها مرحلة العنوسة الدائمة، وهذا لا يعنى أن الفتاة لن تتزوج مطلقًا بعد هذا السن فالواقع لا يؤيد ذلك، ولكنه يعنى أن احتمالات عدم زواجها هى الأغلب.

وكثير من الفتيات يرفضن لفظ عانس لما له من ظلال كئيبة ومعان ثقيلة ولما يحمله من وصمة اجتماعية ونفسية للفتاة، وبعضهن يرين أن فى هذه التسمية جورًا على حرية الفتاة فى أن تتزوج أو أن تعيش بلا قيود (على اعتبار أن الزواج فى وعيهن قيد).

وهناك ثلاث حالات للعنوسة: الحالة الأولى من فاتها قطار الزواج ولم تتزوج أبدًا، والحالة الثانية من تزوجت ولم تفلح فى زواجها، والحالة الثالثة

ذوو الظروف الخاصة وكل حالة لها ظروفها وحالها... فإن الطلاق من أبرز الأسباب المؤدية للعنوسة وانتشاره وكثرته سبب رئيسي لوجود العنوسة فإن كون المرأة تتزوج مرتين أو ثلاث فتعتقد أنه لا حظ لها ولا نصيب لها في الزواج فيصيبها الشيطان بشيء من الإحباط واليأس والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَايْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ ويقول: ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾.

وبعض النساء الرائدات في المجتمع يرين أن هذه التسمية مسيئة للمرأة، ووصمة عار أو حتى شتيمة بحق المرأة وأن هذه "التسمية قديمة ولا تناسب الوقت الحاضر الذي نعيش فيه. فالغرب قضى على هذه الكلمة في بداية القرن الماضي، وهي شتيمة تقريبًا في بعض المجتمعات. ونحن في بلادنا العربية لا نزال نستخدم هذه الكلمة بالرغم من أن الرجل لا تستعمل له كلمة "عانس". ويرى البعض أن الكلمة الصحيحة هي "عزباء"، امرأة عزباء كالرجل الأعزب". البعض قد يفضلون تسمية الظاهرة بتأخر سن الزواج؛ لأن الكلمة تتوقف عند معنى مسيء للمرأة، بل تتعداه لتصبح كلمة موحية بأشياء غير مريحة ومكدرة وكأنها ترتبط بإنسانة مرفوضة وفاشلة في إيجاد زوج، أو أنها تملك عيبًا في شخصيتها، وبالتالي هذا يضع المرأة تحت ضغط نفسي كونها مرفوضة اجتماعيًا، أو أنها تبحث عن زوج، أو حتى خطرة على صديقتها المتزوجة!

إن تجاوزت المرأة السن الذي يراه المجتمع مناسبًا للزواج لا يعني أنها لا تصلح أو أنها غير جميلة. في الواقع أغلب اللاتي تأخرن في الزواج ناجحات في عملهن وفي حياتهن العملية ربما أكثر ممن تزوجت في سن مبكر.

أما حساسية الفتاة من صفة العنوسة فليس لها مبررها، فالعنوسة ليست سُبَّةً أو منقصة، لكنها وصف لمرحلة العمر يصل إليها الجنسان من غير زواج، كما نطلق صفة الطفولة على فترة عمر الكائن البشرى، وصفة الشباب على فترة أخرى... وهكذا.

وإذا كانت العنوسة فى مصطلح العامة تعنى النبذ والبوار، فكم من متزوجات منبوذات بائرات فى بيوت أزواجهن لا يراعون فيهن حرمة ولا ذمة، فالعانس لا يعيبها كونها عانس إذا كانت عفيفة شريفة مؤدية لحقوق ربها وحقوق نفسها وأسرتها ومجتمعها، نافعة لنفسها ولعباد الله، وحافظة لكرامتها من الهدر والابتذال. والإحصان الذى يوفره الزواج ما هو إلا شعبة من شعب عديدة تقوم عليها الحصانة النفسية والعفة، منها قوة الإيمان وتقوى الله وحسن الخلق".

مشكلة العنوسة

لماذا صارت "العنوسة" مشكلة:

من الغريب أن تصبح قضية الزواج مشكلة فى العالم الإسلامى.

إن هذه المشكلة لا تمت إلى ديننا ولا إلى حضاراتنا بأية صلة. فنحن مجتمعات تحدث عنا أعداؤنا بأننا مجتمعات "تعدد الزوجات" ولقد تاجروا بهذه القضية كثيرًا.

فكيف تنقلب مجتمعاتنا إلى مجتمعات "العنوسة" يكاد الزواج فى بعض الأحيان أن يصبح مغامرة انتحارية قد يشقى صاحبها بها سنوات طويلة؟ كيف حدث هذا الانقلاب الخطير فى حياتنا؟ وكيف نسينا أنَّ الزواج أطلق عليه نصف الدين؟ وكيف غفلنا عن عمر بن الخطاب وكان يعرض ابنته

حفصة زوجة رسول الله وأم المؤمنين على صحابته لا يجد فى ذلك حرجًا، ولا يحس أنه يبيع ابنته فى سوق المهر.

وعندما نطالب بمقاومة العنوسة، ومعالجة أكبر أسبابها وهو غلاء المهور، فنحن لا نطلب بتحول المرأة إلى سلعة تقبل التسعير.

إن المهر مجرد مكرمة من الرجل إلى المرأة تعبيرًا عن رغبته وعن رجولته، وهو ليس ثمنًا لسلعة. فالمصلحة مشتركة بين الزوجين، والرغبة متكاملة، وليس هناك بائع ومشترى فى القضية.

وروى النسائى فى سننه قال: أخبرنا محمد بن النظر بن مساور أنبأنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: خطب أبو طلحة أم سليم فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يُردُّ، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة ولا يحل لى أن أتزوجك، فإن تسلم فهذا مهرى، ولا أسألك غيره، فأسلم وكان ذلك مهرها. قال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سليم، وهو الإسلام، فدخل بها فولدت له.

ولقد تأخر سن الزواج فى المجتمعات الجديدة بعدما اتسعت متطلبات الحياة العصرية، وأصبحت البيوت الزوجية محتاجة إلى نفقات مالية باهظة مما يصيب جيل الشباب بالخوف من حمل أعباء الحياة الزوجية، وفى المقابل تتسع مساحات الخوف من العنوسة فى هاجس وأفكار جيل الفتيات الجديد فى عمر مبكر بعد الاطلاع على حالات الأخوات والقريبات المتأنسات إثر الوصول إلى سن متقدمة، مما جعل هذا الجيل النسائى يحاول البحث عن حلول سريعة للعنوسة المتوقعة.. وعبر مكاتب الزواج المتنقلة، وحوارات الدردشة على الإنترنت، والاطلاع على صفحات طلبات الزواج

فى بعض المجلات النسائية، يستمر البحث عن الاستقرار الزواجى، فيصبح اللجوء إلى الشعوذة والسحر والأحجبة المكتوبة داخل مغلفات جلدية من الحلول الجاهزة، لتتسع مطاردة الوهم وتتعدد خيبات الأمل ولا يتحقق حلم الاستقرار فى عالم الطلاسم والوعود الكاذبة.

رأى علماء النفس والاجتماع فى مشكلة العنوسة:

الحقيقة ربما لا يخلو بيت أو عائلة إلا ولديه بنت عانس، أى أن قطار الزواج قد فاتها، وتأخر عنها طلب الرجال للزواج، فهى إما ستبقى هكذا عزباء بقية عمرها وتعيش الوحدة والقهر، أو ربما تقدم لخطبتها وطلب يدها رجل كبير فى السن أو غير كفء لها كما كانت تتصور أو ترغب.

ويكاد علماء النفس والاجتماع يجمعون على أن تداعيات العنوسة لا تتوقف على الفتاة وحدها، وإنما تمتد لتشمل باقى أفراد الأسرة جميعًا، فالأب ـ مثلًا ـ قد ينساق وراء نصائح زوجته بالبحث عن عريس لابنته بين كل المحيطين به والمتعلمين معه، فيلجأ إلى عرض ابنته بطرق غير مباشرة على بعض زملائه أو أبنائهم، وإذا فشل فى ذلك فإنه يلجأ إلى أساليب لا شعورية تخفف عنه، كأن يبلغ الآخرين مثلًا بأن ابنته قد تقدم لها الكثيرون ولكنه رفض ـ أو رفضت هى ـ لأسباب متعددة، وربما تعايش مع هذا الكذب حتى يعتقد بأن ما يرويه من أكاذيب هو الحقيقة بالفعل، وهو ما يقوده فى نهاية المطاف إلى كثير من الاضطرابات النفسية والسلوكية. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تمتد هذه التداعيات لتشمل علاقة الأب بابنته العانس، فينهج فى تعامله معها طريقة من بين ثلاث طرق، فإما التغاضى عن هذه المشكلة، وترديد عبارات مثل "القسمة والنصيب"، وإما

التشدد والعنف فى تعامله مع ابنته وتشديد الرقابة عليها؛ لأنه يظن ـ لا شعوريًا أن فى ابنته شيئًا ما خطأ جعل الآخرين يعزفون عن التقدم إليها، وإما تركك الحبل لها على الغارب بدعوى أن كثرة خروج ابنته ورؤية الآخرين لها قد يدفع أحد الشباب إلى الاقتران بها.

ومن البديهى بطبيعة الحال أن تكون الفتاة نفسها أكثر أفراد الأسرة معاناة من مضاعفات العنوسة، وعلى رأسها المضاعفات الجسدية والنفسية، منها الشعور بالاضطراب والقلق والتخوف من المستقبل وعدم الاستقرار أو راحة البال. ففى المجتمعات العربية تحديدًا يعد الزواج "سترة" للفتاة وحفظًا لكرامة أسرتها، ومن ثم فإن تقدمها فى السن دون زواج قد يثير العديد من الأقاويل التى تمس سمعة الفتاة وسمعة الأسرة، فتشعر بالدونية وبأنها أقل من الأخريات، وبخاصة عندما تصرخ بداخلها نداءات الأنوثة والأمومة، وهو ما قد يدخلها فى دوامات من القلق والاكتئاب واليأس والتشاؤم من الحياة.. وربما حاولت الفتاة التغلب على هذه الدوامات بالنجوء إلى توثيق صلتها بالله أكثر، غير أنها قد تغلو دينيًا فتمارس دور المفتى فى التحليل والتحريم.

وقد تسلك الفتاة العانس طريقًا مغايرًا تمامًا للهروب من دوامات القلق واليأس هذه، فتلجأ إلى الابتذال والسفور غير الطبيعى فى ملابسها وهندامها بطريقة تثير غرائز الشباب، رغبة فى إثبات الذات والشعور بأنها مرغوبة مثل باقى أترابها، بل وربما سعت فى الوقت ذاته إلى كثرة الاختلاط بالشباب فى الأماكن العامة وفى العمل والأسواق تحت زعم ما يسمى بالصداقة.

وشيئًا فشيئًا قد يتحول هذا الابتذال والسفور إلى انحلال خلقي، فتندفع الفتاة إلى الانحراف وإقامة علاقات جنسية سرية وعابرة لإشباع رغباتها خارج مؤسسة الزواج، أو إلى ما يسمى بالزواج العرفي أو السري، غير أنها رغم ذلك تظل في كلتا الحالتين محرومة من مشاعر الأمومة ومن الإحساس بالأمان.

ويرى بعض الخبراء أن: "مشكلة العنوسة لها خلفيات عديدة قد تكون أهمها التغييرات التي طرأت على مجتمعاتنا واحتلال النظرة المادية لتفكيرنا ونظام الحياة بشكل عام حتى أصبحت تحكم اختيارات الزواج... اليوم الفتاة لم تعد تحلم بالفارس الذي يحملها على الحصان الأبيض ولم تعد تهتم بقوة الرجل أو الشكل بل الأقوى هو القادر على توفير حياة مرفهة... من جهة أخرى أصبح من الضروري أن تتم الفتاة تعليمها ومن الواضح أنه كلما كبرت ونضجت الفتاة تدقق بشكل أكبر في اختيارها وقد لا ترضى إلا بالصورة الكاملة بعكس نظرة طالبة المدرسة الصغيرة التي لا يهمها سوى ارتداء الطرحة البيضاء والفرحة بليلة العمر... إضافة إلى وجود تضارب كبير في المفاهيم فنجد أن المجتمع أصبح متخبطًا بين عاداته وتقاليده وبين مفاهيم الحضارة، وهذا ينعكس بشكل أو بآخر على الزواج وتأسيس الأسرة...

ويأتي ارتفاع ظاهرة الزواج من أجنبيات ليشكل بعدًا آخر من أبعاد مشكلة العنوسة؛ إذ بدأت هذه الظاهرة تغزو أغلب المجتمعات العربية بكثافة شديدة حالة حدوث خلاف أو طلاق.. بينما كشفت دراسة لوزارة العدل المصرية عن أن هناك اتجاهًا يسود بين الشباب المصريين للارتباط بزوجات من روسيا ودول الاتحاد السوفيتي السابق وأوروبا الشرقية.

بيانات وإحصائيات حول ظاهرة العنوسة والطلاق

تم رصد ظاهرة العنوسة وارتفاع نسبة الطلاق في المجتمعات العربية لما لها من تأثير سلبي على استقرار الأسر العربية وقد وجدت الظاهرة متفاوتة من دولة إلى أخرى.

ففي مصر أعلن اجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء عن ارتفاع نسبة العنوسة حيث وصلت إلى ٩ ملايين شاب وفتاة تجاوزوا سن الخامسة والثلاثين من دون زواج وقد وصل عدد الإناث إلى ثلاثة ملايين و٩٦٢ ألف والباقي من الذكور في حين بلغت عدد وثائق الطلاق التي صدرت في العام الماضي ٢٦٤ ألف وثيقة طلاق. كما سجلت الإحصائية وجود ألف حالة زواج عرفي بين أصحاب الشركات وسكرتيراتهم.. وأن نسبة غير المتزوجين بين الشباب تصل إلى ٣٧٪.

الطريف أن الإحصائية شملت أيضًا وجود نحو ٥ آلاف مصري متزوج من ٤ سيدات ومن هؤلاء الأزواج من يحمل درجة الدكتوراه أو درجات علمية مرتفعة وليس أصحاب المهن أو التجار وحدهم، في حين زاد عدد من يجمعون بين زوجتين فقط إلى قرابة مليون مصري.

وأظهرت دراسة حديثة أجريت في أحياء مصر ذات الكثافة السكانية العالية، حدوث زيادة متسارعة الوتيرة لما أصبح معروفًا "بالطلاق العاطفي" وهذا النوع من الطلاق غير مسجل حيث يتم الطلاق على وضع زوجي يقوم به الرجل بالعيش مع زوجة ثانية مع استمراره في العيش مع الزوجة الأولى، فيقع انفصالًا عاطفيًا بين الزوجين حيث يقيم الزوج علاقات عاطفية وزوجية خارج المنزل الزوجي.

كما كشفت الدراسة عن أن عدد المطلقين والمطلقات بلغ ٣٦٤ ألفًا و ٣٦١ مصريًا ومصرية، وأن عدد عقود الزواج التي تم إبرامها رسميًا في مصر عام ١٩٩٩ بلغ ٥٢٠ ألف بنسبة ٨.٢ ٪ من السكان، مقابل ٤٠٥ آلاف عقد زواج في عام ١٩٩٠، أي بزيادة قرابة ١١٥ ألف عقد زواج. في حين بلغت عقود الطلاق التي تم استخراجها عام ١٩٩٩ نحو ٧٤ ألف حالة مقابل ٦٧ ألف شهادة عام ١٩٩٠.

وأكد خبراء الجهاز أن هذه الأرقام ترجمة فعلية لظاهرة خطيرة بدأ يعاني منها المجتمع المصري لا سيما في السنوات الأخيرة، وهي ظاهرة العنوسة التي استهدفت بدرجة أكبر الفئات الوسطى، محملين الفتيات والأسرة المسؤولية عن تفاقم تلك الظاهرة بسبب تغير مفاهيمهن عن الزواج مما جعل الشاب يقف عاجزًا عن توفير الحد الأدنى لمتطلبات الفتاة وأسرتها.

وفي سوريا تكشف الأرقام الرسمية المنشورة أن أكثر من ٥٠٪ من الشبان السوريين الذين وصلوا إلى سن الزواج عازفون عن الزواج ـ أو عجزوا عنه ـ بسبب عدم قدرتهم المادية على ذلك وعدم توفر المسكن الملائم للزواج.

ووفقًا لأرقام المجموعة الإحصائية السورية لعام ١٩٩٥ فإن ٨٢.٤٪ من الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن ما بين ٢٠ و٢٤ عامًا لم يتزوجن أبدًا، و٦٠٪ من الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن ما بين ٢٥ و ٢٩ عامًا لم يتزوجن أبدًا أيضًا، بينما بلغت نسبة اللاتي تخطين ٣٤ عامًا دون زواج ٣٧.٢٪، ووصلت نسبة اللاتي تجاوزن ٣٩ عامًا دون زواج إلى ٢١.٣٪، وهو ما يعني أن أكثر من نصف النساء غير متزوجات.

أما فى الكويت فإن نسبة العنوسة بين الفتيات الكويتيات تقترب من نسبة ٣٠٪ حسب بعض الإحصاءات الرسمية حيث بدأ الشباب الكويتى فى العزوف عن الإقدام على الزواج؛ نظرًا للأعباء الاقتصادية الباهظة بينما وصلت نسبة الطلاق فى الكويت إلى ٣٣٪.

وفى الجزائر كشفت الأرقام الرسمية التى أعلنها الديوان الجزائرى للإحصاء أن أكثر من ٥١٪ من نساء الجزائر اللاتى بلغن سن الإنجاب يواجهن خطر العنوسة، وأن هناك أربعة ملايين فتاة لم يتزوجن رغم تجاوزهن الرابعة والثلاثين عامًا، موضحًا أن عدد العزاب بالجزائر تخطى ١٨ مليونًا من عدد السكان البالغ ٣٠ مليون نسمة، وأن نسبة المطلقات بلغت ٣٦.٩٪.

وفى الإمارات، لا تزال مشكلة العنوسة تفرض نفسها بقوة، رغم أن الدلائل تشير إلى حدوث تقدم نسبى، خاصة فيما يتعلق بمعدلات استمرار الحياة الزوجية بين المواطنين فقد كشفت إحصائية حديثة أجراها صندوق الزواج الإماراتى عن أن معدلات الطلاق بين الإماراتيين فى إمارة أبو ظبى انخفضت عام ١٩٩٩م إلى ١٦.٥٪ مقابل ٥٢٪ قبل عشرة أعوام، حيث بلغ عدد حالات الطلاق عام ٩٩ نحو ١٣٨ حالة مقابل ٨١٠ زيجات، بينما وصلت حالات الطلاق عام ٩١ إلى ٢٨٣ حالة مقابل ٥٤٤ حالة زواج.

وإذا انتقلنا إلى المملكة العربية السعودية، فإن الإحصاءات التى صدرت عام ١٩٩٩م تشير إلى أن ثلث عدد الفتيات السعوديات بلغن سن الزواج، وأن عدد من تجاوزن سن الزواج بلغ حوالى مليون ونصف مليون فتاة من بين نحو أربعة ملايين فتاة.

وأوضحت إحصائية لوزارة التخطيط السعودية أن عدد البنات اللاتى تجاوزن العام الماضى سن الثلاثين دون زواج قد بلغ مليونًا وخمسمائة وأربعة وتسعين ألفًا وثمانى عشرة بنتًا سعودية، وأن بحث كل فتاة عانس عن حل لمشكلة عنوستها يختلف من فتاة لأخرى، فمنهن من تلقى نفسها فى أحضان الخاطبات للبحث عن زوج بشروط قياسية، فى حين تنغمس الأخريات فى دوامة العمل وربما يشاركن فى الفعاليات الثقافية والاجتماعية، وإن كان ذلك لا يبعد حلم الارتباط برجل عن أذهانهن.

ونجد الأمر يقل خطورة فى الأردن فقد سجلت دائرة الإحصاءات العامة أقل نسبة للعنوسة مقارنة ببقية الدول العربية وعزا مصدر رسمى أسباب ذلك إلى انتشار الوعى وتخفيض تكاليف الزواج والمهر المؤجل.

بينما فى المغرب بلغت عدد عقود الزواج فى الرباط خلال العام الماضى ٨٥٦٩ عقد نكاح، فى حين بلغت حالات الطلاق ٢٧٢١ حالة، وشكل الطلاق الخلعى النسبة الكبرى من الحالات، بينما احتل الطلاق الرجعى المرتبة الثانية.

وفى تونس تفوق واضح فى نسبة الإقبال على الزواج وانخفاض معدل الطلاق قياسًا بالقرى التى ترتفع فيها نسبة العنوسة.

وفى لبنان، أكدت إحصائية أجرتها وزارة الشؤون الاجتماعية والصحة اللبنانية أن نسبة الذكور غير المتزوجين ما بين ٢٥ و٣٠ سنة تبلغ ٩٥.١٪، والإناث ٨٣.٢٪.

عنوسة أبنائنا من صنع أعدائنا

من خلال الإحصائيات حول ظاهرة العنوسة - يرى بعض المتخصصين والإعلاميين أن هذه النسب المتزايدة سنة بعد سنة، يقف منها الغرب اليوم موقف المؤيد والداعم والمخطط من أجل تزايدها في أسرع وقت، ولعل أبرز الداعمين لهذا التوجه هي "منظمة الأمم المتحدة" مع ما تمثله من دول كبرى تدرك أهمية العنوسة في الحد من عدد سكان العالم الثالث (والعالم العربي من بينهم) والتي تطلق عليها سياسة تحديد النسل التي تدعو هذه المنظمة إلى تطبيقها في دول الجنوب الفقيرة، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتناقص نسل دول الشمال الغنية، وذلك بسبب عزوف الكثير من أبناء هذه الدول عن الزواج والإنجاب، مما أثار مخاوف الخبراء الاجتماعيين والسياسيين ورجال الأعمال في تلك الدول. وقد ذكرت إحدى نشرات الأمم المتحدة الصادرة عام ١٩٨٩م. تقريرًا عن موقع أوروبا في الخريطة السكانية للعالم، تحت عنوان "سكان العالم في بداية القرن" جاء فيه صراحة: "إن أوروبا تذوب الآن كالجليد تحت الشمس، فسكان القارة الذين كانوا يمثلون نسبة ١٥.٦٪ من سكان العالم عام ١٩٥٠م تراجعوا عام ١٩٨٥م، إلى ما نسبته ١٠.٢٪ من سكان العالم. وهذه النسبة ستصل عام ٢٠٢٥م. إلى ٦،٤٪ لا غير.

وهذا الأمر ينطبق أيضًا على كثير من دول الغرب منها السويد وألمانيا واليابان وهنغاريا ورومانيا والولايات المتحدة الأميركية التي حذرت الأبحاث الصادرة عنها من النقطة التي يكون فيها عدد المواليد مساويًا لعدد الوفيات.

إضافة إلى هذا يأتي الخوف من هجرة أبناء دول الجنوب الفقيرة الشرعية وغير الشرعية مما قد يؤثر على أمن دول الشمال وعلى التغيرات الديمغرافية المستقبلية. وهذه المخاوف غالبًا ما يستغلها المرشحون لرئاسة الجمهورية في تلك الدول من أجل جذب أصوات الناخبين، كما فعل "نيكولاي ساركوزي" رئيس فرنسا، والمشهور بموقفه المعادي للهجرة، فقد واجه منذ عدة سنوات "أبناء المهاجرين في مظاهرات ضواحي باريس ووصفهم باحتالة ووعد بتنظيف فرنسا منهم" وهو لقب دول الجنوب تميزًا لهم عن دول الشمال الغنية.

إن تدهور الحال السكاني في الدول الفقيرة والعالم الثالث دفع البعض في المنظمات الدولية إلى اتباع بعض الوسائل التي يمكن أن تساعد على علاج هذا الوضع منها ما يلي:

١ - **تطبيق سياسة تحديد النسل وإباحة الإجهاض في الدول الفقيرة.**

٢ - **الدعوة إلى منع الزواج المبكر ورفع سن الزواج إلى ١٨ سنة.**

٣- **سن القوانين التي تدعو إلى منع تعدد الزوجات**، باعتبار أن هذا يتنافى مع حقوق المرأة، حتى ولو تم بموافقة المرأة نفسها وإرادتها أسوة بتونس التي منعت (مجلد الأحوال الشخصية لعام ١٩٥٦). تعدد الزوجات ونصه "تعدد الزوجات ممنوع، كل من تزوج وهو في حالة الزوجية وقبل فك عصمة الزواج السابق يُعاقب بالسجن لمدة عام، وغرامة قدرها مائتان وأربعون ألف فرنك، أو بإحدى العقوبتين، ولو أن الزواج الجديد لم يبرم طبق أحكام القانون".

ومن الوسائل المتبعة من أجل إلغاء التعدد، الدعوة الموجهة من قبل

البعض فى لبنان من أجل إيجاد قانون يعرف بـ "قانون موحد للأحوال الشخصية" وهو ما يطلق عليه اسم "الزواج المدنى"، وهو يدعو فى أحد بنوده إلى "منع تعدد الزوجات من خلال اعتبار الزواج باطلًا إذا كان أحد الزوجين مرتبطًا بزواج سابق قائم".

٣- **التشديد على أهمية التعليم بكل مراحله** وخاصة الجامعي خاصة الفتاة.

٤ - **التشجيع على عمل المرأة وربطه بالتنمية**: والسعى إلى المساواة بينها وبين الرجل فى هذا المجال، ويعتبر عمل المرأة عاملًا مهمًا فى انتشار العنوسة، وذلك لسببين:

أ ـ تزايد عدد النساء العاملات علمًا بأن هذا قد يتم فى أحيان كثيرة على حساب توظيف الرجل الذى لا يجد فرص عمل مناسبة.

ب ـ الأجر الذى تجنيه المرأة والذى يؤثر سلبًا على زواجها؛ إذ إنه قد يجعلها تؤجل مشروع الزواج إلى حين وجود الشخص المناسب غير الطامع فى هذا الأجر، إضافة إلى طمع بعض الأهل فى راتب ابنتهم مما يدفعهم إلى رفض الخطاب الذين يتقدمون إليها.

٥- **الدعوة إلى سن بعض القوانين التى تراعى حاجات الشباب الغريزية**، والتى يمكن أن تدفعهم إلى طلب الزواج فى سن مبكرة، من هذه القوانين تلك التى تتعلق بمنع تجريم الزنى وإلغاء العقوبات بالسجن، فى الدول التى تعاقب على هذا الفعل قانونيًا، وعلى إبطال الحدود فى الدول الإسلامية التى لا زالت تطبق الشريعة الإسلامية.

٦- **نشر الإباحية فى وسائل الإعلام** والتى تترك أثرها على كل من الفتاة

والشاب. فالشاب يبحث عن زوجة تتوافق مواصفاتها مع الممثلة كذا، والفتاة تلهث وراء وسائل التجميل للتشبه بالمغنية والمذيعة الفلانية. وهذا طبعًا لا يحدث، خاصة أن أغلب هؤلاء يقمن بالكثير من عمليات التجميل المرتفعة الكلفة من أجل الحصول على الشكل الذي هن عليه. وهذا الأمر قد يدفع ببعض الشباب إلى تفضيل الفتاة الأجنبية التي تتمتع بمواصفات قريبة من تلك التي رآها عبر وسائل الإعلام، الأمر الذي يساهم في زيادة العنوسة في أوساط بنات البلد.

ولوسائل الإعلام دور آخر في موضوع العنوسة، يتمثل في المسلسلات والأفلام الأجنبية والمحلية، والتي تنقل صورة مشوهة عن الزواج وخاصة من ناحية التعدد، وتعظم في المقابل من صورة المرأة "المتحررة".

إن ما ورد كان نموذجًا عن بعض النواحي التي تساهم بشكل غير مباشر في ارتفاع نسبة العنوسة. ولكن لا ينبغي أن نغفل عن الجوانب الداخلية الأخرى والتي منها:

١- **دور الأهل** في تأخر سن زواج بناتهم، فقديمًا قيل "اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك"، إلا أن تعنت الأهل ورفضهم زواج بناتهم عبر المبالغة في المهور وفي فرض الشروط من شبكة وأثاث وحفل عرس، يجعل المثل الذي يقول "الذي لا يريد أن يزوج ابنته يغلي مهرها" هو الذي يطبق على هؤلاء الأهل الذين يتجاهلون قول رسول الله ﷺ: **"خير الصَّداق أيسره"** وقوله عليه الصلاة والسلام: **"إذا أتاكم من تَرْضَوْنَ خلقه ودينه فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض"**، **وقوله أيضًا لعلي بن أبي طالب** ﷺ: **"ثلاث يا علي لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤًا"**.

٢ - **رفض الفتاة** لكل من يتقدم إليها بحجة هذا طويل وهذا قصير وهذا فقير وهذا جاهل، إلى أن تصل الفتاة إلى مرحلة تبدأ فيها بتقديم التنازلات المتتالية، والتي تنتهي بقبول أي خاطب مهما كان وضعه "مطلق، متزوج، أرمل، كبير في السن، صاحب أولاد"... لا يهم، المهم أنها أدركت أخيرًا بأن... "الزواج هو ستر للبنت".

٣- **رغبة الشباب** في بعض المجتمعات في الفتاة الأصغر سنًّا، والأقل مؤنة، وهذا الأمر غير متوافر في الفتاة الجامعية التي إضافة إلى كونها لا تتمتع بالمواصفات المذكورة، فهي أعسر قيادًا وطاعة لكثرة مناقشاتها وتمسكها برأيها وخاصة في حال كونها عاملة مستقلة في تدبير أمور معيشتها. من هنا تأتي النصيحة لفتيات اليوم الجامعيات إلى شيء من التواضع وعدم الجرى وراء التقليد الغربي الأعمى الذي يرفض القوامة تحت حجة المساواة بين المرأة والرجل.

٤- عدم قيام الدولة والأهل بإعانة طالبي الزواج التزامًا بسنة رسول الله ﷺ الذي قال: "ثلاثة حق على الله عونهم: **المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله**".

فقد أباح الفقهاء تزويج العازب من أحد مصارف الزكاة، فاعتبروا أن الفقير هو من "لا يملك دارًا للسكنى، والذي لا يملك زوجة للعصمة، والذي لا يملك مالًا للنفقة... فهؤلاء يعطون من مصارف الزكاة ما يكفيهم، وما يحقق لهم المسكن الصالح أو الزوجة الصالحة أو النفقة الواجبة، ولو استغرق العطاء مبلغًا كبيرًا من المال".

وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ من ينادي في الناس كل يوم: "أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون"؟

أخيرًا، لا ينبغي أن ننسى أيضًا أن العنوسة قد تصبح في مرحلة متقدمة "عنوسة مختارة"، وذلك عندما يصل قسم كبير من الفتيات العاملات إلى مرحلة يرفضن فيها الارتباط الزواجي خوفًا من أن يتحكم بهن الرجال، وهؤلاء في الغالب هن ممن يملكن دخلًا كافيًا يجعلهن في غنى عن مسؤوليات الزواج، فيعزفن عن الزواج بإرادتهن، أو يمكن أن يلجأن إلى أنواع أخرى من الزواج مثل الزواج العرفي أو زواج المسيار عند أهل السنة أو إلى زواج المتعة عند الشيعة، وذلك بهدف إشباع غرائزهن من دون تحمل أي مسؤولية.

الخلاصة:

ما ورد سلفًا ليس معناه الوقوف في وجه علم المرأة ودعوتها إلى ترك العمل وخدمة مجتمعها، ولا هي أيضًا دعوة مفتوحة إلى الزواج المبكر بشكل يضر بطفولة الفتاة، ولا هو كذلك نوع من المطالبة بالتركيز على موضوع تعدد الزوجات على أنه الحل الوحيد لقضية العنوسة، بل المقصود هو إظهار مدى تدخل الآخرين في القضايا الداخلية، والتحذير من الأهداف الخفية لدعواتهم والتي تحدث عنها أحدهم بقوله: "إن العمل على تأخير سن الزواج، لا يكون بطريقة قانونية (إجبارية) بل عبر نشر وتأمين الحياة اللائقة للأنثى من تعليم وعمل، مما يؤدي بالتالي إلى إشغال المرأة، ويقلل من معدل الولادات عندها، ويعتقد العديد من العلماء أن برامج تحديد النسل لا تؤتي ثمارها إلا إذا طبقت الحكومات الوسائل التي سبق ذكرها.

الرجل والعنوسة

نظرة الرجل إلى العنوسة تختلف عن نظرة المرأة إليها، كما أن وضع الرجل العازب يختلف عن وضع المتزوج، الرجل العازب لا يعاني من آثار العنوسة كما تعاني منها المرأة، بدليل أنه يستطيع متى شاء أن يتزوج الفتاة التي يريد وبالعمر الذي يريد فهو الطالب وليس المطلوب، بينما الفتاة لا تستطيع ذلك، لأنها محكومة بمدة زمنية معينة تنتهي أو تقل تدريجيًّا بانتهاء فترة الخصوبة، وهنا قد يقول قائل: لم يعد هناك مشكلة في الخصوبة، فالطب الذي تقدم بشكل كبير، يسمح للمرأة بالإنجاب في أي عمر شاءت؟ ووسائل الإعلام قد أتحفتنا بقصص وأخبار النساء اللاتي أنجبن فوق الخمسين بل وحتى الستين؟

وهذا أمر صحيح في بعض جوانبه، ولقد بث الأمل في قلوب كثير من الفتيات اللاتي يتأخر زواجهن، ولكن ما لا يدركه الكثيرون، أن فترة التبويض لدى المرأة لها عمر معين عندها تنتهي إمكانية الإنجاب الشرعي، وعندها تأتي الخطورة من التحول إلى الجانب غير الشرعي عن طريق استعارة بويضة من امرأة أخرى. وطبعًا من لا يملك الحصانة الشرعية يمكن أن يقع في ذلك.

أما الرجل المتزوج، فإن البعض منهم يبادر إلى إيجاد الحلول الفردية، إما عن طريق خيانة زوجته مع إحدى هؤلاء الفتيات اللاتي يوهمهن بأنه غير سعيد مع زوجته، وأنه ينوي أن يتزوجها بعد أن يطلقها، وإما أن يبادر إلى الزواج بأخرى تحت ستار معالجة قضية العنوسة.

الحوار هنا ليس مع أو ضد تعدد الزوجات، لكن ضد استغلال البعض لمشاعر الفتيات العازبات من أجل قضاء نزوة عابرة غالبًا ما تنتهي بالطلاق بعد أن يعجز المعدد عن التوفيق بين الزوجتين. أو بناء أسرة جديدة على حطام وتدمير أسرة قائمة بالفعل وظلم زوجة وأبناء ليس لهم ذنب.

هذا بالنسبة للرجل المتزوج، أما المرأة المتزوجة فإنها بمجرد أن تتزوج تنسى أنها كانت في يوم من الأيام عزباء، وأنها مرت أو كادت أن تمر بفترة العنوسة، لذلك تتغير نظرتها إلى بنات جنسها، وتصبح إما أشد حذرًا وحرصًا في تعاملها معهن، وذلك خوفًا من أن "يخطفن" زوجها منها، وإما تصبح أكثر نقدًا لهن بسبب عدم قدرتهن على كبت مشاعرهن، وكأن الزواج هو نهاية العالم!!